

سيمائية وسائل الإعلام مارشال ماك لوهان نموذجاً

الدكتور: بودرياله الطيب

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
قسم الأدب العربي - جامعة باتنة

يعد العالم الكندي مارشال ماك لوهان (ولد سنة 1911 وتوفي سنة 1982) من أشهر منظري وسائل الإعلام، بفضل الثورة التي أحدثتها كتاباته الشهيرة في هذا المجال، ولعل أشهر هذه الكتب هي:

-مجرة غوتنبرغ *la galaxie gutenber* (1962)

-معرفة وسائل الإعلام *pour comprendre les média* (1964)

-الحرب والسلم في القرية الكونية *Guerre et paix dans le village planétaire* (1968)

وقد بشرت هذه الدراسات بتحول حضاري لم يسبق له مثيل في تاريخ الإنسانية. لذلك أطلقت عليه تسمية «نبي العصر الإلكتروني»، وأضحى أشهر مثقف داخل كندا وخارجها، نتيجة إشعاعيته الفكرية الإعلامية العالمية.

يصرح هذا العالم في مقدمة كتابه «معرفة وسائل الإعلام» بأن الكتب المنشورة لا تتجاوز عادة 10% من الأفكار الجديدة، تسهياً لفهمها واستيعابها وتمثلها من طرف جمهور القراء. فالمؤلفون يجارون عادة القراء ولا يثقلون عليهم، والمثل يقول: «وخطبوا الناس بما يفهمون». أما كتابه هذا، فنسبة المعلومات الجديدة فيه تتجاوز 75%، مما يفسر تردد دور النشر في نشره، لأنه يقوض أفق التوقع ويؤسس لتصور جديد غير مألوف وغير معهود في السابق.

وهذا يفسر إلى حد كبير غموض هذه النظرية وتعقدها وصعوبة فهمها.

وقد أدرك ماك لوهان بفضل وعيه الحضاري وروحه الإستشراافية الدور التاريخي والحضاري الذي تقوم به وسائل الإعلام في العصور الحديثة، إنها السلطة الرابعة - كما

اصطلح على تسميتها-التي تتحكم في صنع المصير الإنساني. يقول العالم إينشتاين: «
هناك ثلاث قنابل تهدد مستقبل الإنسانية:

1-القنبلة الأولى: وهي القنبلة النووية

02-القنبلة الثانية:وهي القنبلة الديموغرافية

03-القنبلة الثالثة:وهي القنبلة الإعلامية.

لذلك يجب التحكم في هذه القنابل حفاظا على النوع الإنساني المهدد بالانقراض والفناء». .
تقوم نظرية ماك لوهان على فكرة أساسية مفادها أن «الرسالة هي الوسيط (أو القناة) le
« message c'est le médium

ونحن نعرف أن الرسالة رسالة وأن الوسيط وسيط ، وأنه يستحيل تحقيق تطابق في
الهوية بين الرسالة والوسيط، بناء على نظريات التواصل المعروفة والتي تبني على ستة
عناصر:

1-الباث 2- المتلقي3-الرسالة 4-المرجع 5-القانون (أو الشفرة) 6-الوسيط (أو القناة).

ويقابل هذه العناصر الستة وظائف، شرحها بإسهاب رومان ياكوبسون وهي:

1- الوظيفة التعبيرية (أو الإنشائية).

2- الوظيفة الإفهامية

3- الوظيفة الشعرية

4- الوظيفة المرجعية

5- الوظيفة ما فوق اللسانية

6- الوظيفة الانتباهية

وقد أولت نظرية ماك لوهان أهمية كبرى لدور الوسيط في التحولات التي عرفتھا
الإنسانية منذ القديم.وتزداد خطورة الوسيط في العصر الحديث، حيث نجده قد تمكن من
الاستحواذ على كل الفضاء، مهيمنا على كل أبعاد الحياة الإنسانية. وبفضل ثقافته الواسعة
والغزيرة، وتكوينه الموسوعي، وتمثله لكل المعارف الحديثة، استطاع ماك لوهان أن يبتدع
هذه النظريات ويبلورها، فاتحا بذلك عهدا جديدا للوعي بحضارة وسائل الإعلام العصرية.
ويؤكد المفكر أن الرسالة في العصر الحديث، على أهميتها، غدت أسيرة الوسيط الذي
يتمنها ويضخمها(رغم تفاقتها أو عدميتها) أو يقزمها ويقتلها(رغم جلال شأنها).إن
الرسالة،باعتبارها مدلولا، تذوب كلية في الوسيط الذي أصبح رسالة و دالا ومدلولا في

الوقت نفسه. ومع هذا التحول الخطير، تتحقق مقولة أحد المفكرين عندما يلاحظ التحكم الكلي للوسيط في الخبر الإعلامي: «الأصفار تصبح أبطالاً والأبطال تصبح أصفاراً»
 ماذا يعني الوسيط في العصر الحديث؟ إنه كل شيء إنه يمثل تلك الإمكانيات والقدرات التكنولوجية الجهنمية المسخرة للتأثير على الإنسان والاستحواذ على ذوقه وجوارحه وأحاسيسه ووعيه وأفكاره وسلوكاته، بهدف تشكيله تشكيلاً جديداً، يفقد معه هويته وارادته وحرية وإنسانيته، إنه الإنسان الآلي، الإنسان المبرمج من طرف وسائل الإعلام.
 أما الإمكانيات المسخرة، فهي لا تعد ولا تحصى، مثل تقنيات الصورة، هندسة الصوت، الألوان، الديكور، الحيل السينمائية، الصور الوهمية، التركيب، المزج، الأضواء، الأزياء، الرسومات، الفضاء، الإثارة، الترغيب، التشويق، الرمز، الأسطورة، استغلال جسد المرأة الشبقي، التركيز على الإثارة والمنعكس الشرطي (بافلوف)... الخ
 ويرى ماك لوهان أن هذا الوسط يؤثر على الحيوان، فما بالك بالإنسان. ويروى حكاية مفادها أن فأرة، بعد مشاهدتها للتلفاز، هاجمت طفلة صغيرة وقطعتها، ولحسن الحظ لم تترتب عن هذا الهجوم أضرار بالغة.

وقد أدرك المبدعون في القرن التاسع عشر مدى تأثير التكنولوجيا الحديثة على وعي الإنسان وسلوكاته، فاستعانوا بهذا التراكم التكنولوجي والمعرفي للتعبير عن رؤية جديدة للعالم. ويظهر هذا جلياً في كتابات فلوبيير وزولا وجويس وفيرجينيا وولف، وفي رسومات بعض كبار الرسامين الذين ينتمون إلى تيار الانطباعية والتعبيرية والمستقبلية، ثم تجسد هذا الوعي من خلال النماذج الروائية الجديدة في فرنسا خصوصاً، وفي أوروبا عموماً، ومن خلال الفنون غير التشكيلية (الفن التجريدي، التكعيبي.. الخ)

ولإعطاء نظريته الطابع العلمي الصارم، يلجأ ماك لوهان إلى استثمار الاكتشافات العلمية التي أنجزت في شتى الميادين، فنراه مثلاً يستعين بالبيولوجيا للربط بين وظائف الدماغ ووسائل الإعلام، إذ ينطلق من تقسيم دماغ الإنسان إلى شقين الشق الأيمن والشق الأيسر. هذا الأخير يتحكم في الجانب الأيمن لجسم الإنسان ويتضمن الوظائف الحيوية التالية:

-البصري

-الفعالية

-الكمي

- القراءة والكتابة
- المنطق، الرياضيات
- التنظيم والتصنيف
- التسلسلي، الاطرادي
- الإدراك العقلي
- المقطع
- إدراك الأنساق والظواهر
- المراقبة
- الذكاء
- البعد الاجتماعي
- التحليل
- التركيب
- أما الشق الأيمن من المخ فيتحكم في الجزء الأيسر من جسم الإنسان ويتحكم في الوظائف الحيوية التالية:
- الفن
- اللاشعور
- الرمز
- الأبعاد الروحية
- الحدس
- الغنائية
- العاطفة
- الأسطورة
- الخيال
- الوعي بالأشكال
- التزامنية

وهذه الوظائف، تتفاوت من إنسان لآخر، ومن حضارة لأخرى، فإنسانية الأساطير والملاحم والفنون الشعبية والمشافهة، كانت تعيش في وفاق وتوافق مع نفسها

ومع المحيط، لأنها كانت خاضعة للشق الأيمن من المخ. ومع اكتشاف الأبجدية، تمت عقلنة التجربة الداخلية والوجودية للإنسان، وبذلك أخذ الجانب الأيسر للمخ يهيمن تدريجياً على الإنسان. ويظهر هذا واضحاً عندما انتصر الفكر العقلي اليوناني في القرن الخامس قبل الميلاد على الأساطير وعلى الروح الملحمية الهوميروسية. وتدعمت هذه السيطرة باكتشاف غوتنبرغ الألماني للطباعة سنة 1438، هذا الاكتشاف الذي يعد تحولاً حاسماً في تاريخ الإنسانية.

ويلتقي ماك لوهان مع العالم غاستون باشلار الذي ينسب إلى الشق الأيسر للدماغ ما يسميه بالخيال النهاري *imagination diurne*، وإلى الشق الأيمن ما يعده موطن الخيال الليلي *imagination nocturne*

ويعتقد باشلار أن الكلاسيكية تمثل الخيال النهاري، لأنها تقوم على العقل، بينما تمثل الرومنسية الخيال الليلي، لأنها مؤسسة على الوجدان والعاطفة. ومع اختراع التلغراف والتلفون والسينما ووسائل الإعلام الحديثة التي تغلب التزامنية والسريرتيا والتفاعلات اللامحدودة، أضحى الشق الأيمن يحتل الصدارة، وهكذا تحققت هذه النقلة النوعية من العصر الميكانيكي القائم على الشق الأيسر إلى العصر الإلكتروني القائم على الشق الأيمن. ويتحول العالم إلى سنفونية تتناغم فيها، وتتدمج مع بعضها البعض كل مكونات الحياة.

وكان للاكتشافات العلمية الكبرى التي تمت في القرن العشرين، والتي أحدثت قطيعة إستمولوجية هامة مع التراث العلمي، كان لها تأثير حاسم في بعث إنسانية جديدة، ووعي إعلامي ثقافي جديد. لا ينكر أحد أن فيزياء القرن العشرين تحولت من الشق الأيسر إلى الشق الأيمن، أي من فيزياء إقليدس ونيوتن الميكانيكية، إلى فيزياء كنتا *quanta*، وما نجم عن ذلك من نتائج هامة. كما تحولت الثقافة من عقلانية ديكارت إلى عالم اللاشعور الفرويدي، وتحولت اليقينييات العلمية إلى نسبية اينشتاين وتفكيكية دريدا، بعد الإطاحة بسلطان العقل ومركزيته

والمشكل يكمن في كون هذه التحولات تتم وفق وتيرة سريعة بحيث تعجز ذهنية الإنسان عن استيعابها والتحكم فيها، مما يولد لدى الإنسان إحساساً بالاستلاب وشعوراً بالغربة والتلاشي.

إن الإنسان المعاصر يعيش في وسط جديد متغير، لكن بعقلية الوسط القديم، لصعوبة التأقلم مع الجديد، ذلك أن وتيرة التغيير السريعة تلقى مقاومة من الأبنية العقلية البطيئة التطور، والتي تعجز عن استيعاب المستجدات وتمثلها وفق السرعة المطلوبة.

إن وعي الإنسان هو دائما وعي بالوسط السابق، لذلك حول أدباء العصر الميكانيكي ومبدعوه (القرن التاسع عشر بصفة خاصة) العصور السابقة إلى أشكال فنية وقيم جمالية ومرجعيات الرومانسية التاريخية خير دليل على ذلك.

كما حول عصر الطباعة القرون الوسطى إلى موضوعات فنية وجمالية، وكانت بالنسبة لهذا العصر مصدر إلهام ونموذجا للكمال. فالفن يعد من هذه الناحية، وسطا مضادا ومقاوما للوسط الذي يترعرع فيه، لأنه يتأسس كطوباوية مشدودة إلى الفردوس المفقود ومتطلعة في الوقت ذاته إلى المدينة الفاضلة وحلم المجتمع الأمثل.

ويرى ماك لوهان أن الفنان العبقرى هو الذي يستطيع، بفضل روحه التنبؤية وقدرته الإستشرافية وعقله النقدي، استيعاب جدلية الماضي والحاضر والمستقبل، ومن ثمة معايشة الواقع التاريخي مقاومة ونقدا وتجاوزا.

كما يؤكد أن محتوى أي وسيط هو وسيط آخر سابق له.

-محتوى الكتابة هو الكلام (الصوت)

-محتوى الكلام هو الفكر

-محتوى الصحافة هو المطبوع (imprimé)

-محتوى التلفزيون هو السينما

-محتوى الانترنت هو التلفزيون

إنها جدلية التزامن والتعاقب التي تتحكم في كل الإبداعات الثقافية. إن الثقافة لا تنشأ من العدم، وإنما تشكل حلقة من الحلقات المكونة لسلسلة الثقافة الضاربة الجذور في أعماق التاريخ. وهذا يعني أن الثقافات والحضارات يتوارث بعضها البعض في الزمان والمكان. إن كل حضارة تنمي ملكة إعلامية معينة لدى الإنسان. فالحضارات القديمة التي كانت تقوم على المشافهة نمت ملكة السماع وكل ما يتصل به من ذاكرة وحس موسيقى وحضور الدلالة وشفافيتها. وعندما جاء التدوين الذي خلد التراث الشفوي، أخذت ثقافة المشافهة تبتعد تدريجيا عن مركزية الحياة ليتقلص نفوذها ويضمحل. وخير مثال على

ذلك هو اكتشاف الطباعة في أواسط القرن الخامس عشر، حيث أضحت ملكة البصر تطغى على الحياة الثقافية على حساب المشافهة والصوت. ومع القرن العشرين، حدث تحول نوعي هام، تمثل في التحول من حضارة المكتوب الصرف إلى الحضارة السمعية البصرية التي نعرفها، وكانت النتيجة انهيار حضارة السماع واللمس والمكتوب في الوقت نفسه.

وملكات الإنسان، كما بين ماك لوهان، ليست حيادية، فكل ملكة تنمي وظائف إنسانية معينة على حساب وظائف أخرى، فحضارة الأذن مثلا، تنمي أنشطة إنسانية معينة مثل:

-الموسيقى

-التعددية

-الذاكرة

-اللاعقلانية

-الحفظ

-الزمن الدائري

-البيان

-الارتباط بالماضي

-السرود

-الحضور الدلالي

-الأسطورة

أما ملكة البصر، فهي تنمي طاقات و قدرات معينة، مثل:

-روح التصنيف

-البعد الأحادي

-الزمن التاريخي

-العقلانية

-الكتابة

-الفضاء

-التسلسل

-الواقعية

-الإحساس بالمظاهر

ومن خلال دراسته لأركيولوجيا الوسائط ،اكتشف هذا العالم أن كل وسيط يقضي على الوسيط الذي كان قبله،بطريقة أو بأخرى:

فالكتابة تقتل الكلام

والصحافة تقتل المسرح

والتلفون يقتل التلغراف

والتلفزيون يقتل السينما(أضحت دور السينما في الجزائر وفي مختلف بلدان العالم أثرا بعد عين)

والتلفزيون الرقمي(numérique) يقتل القياسي analogique

لكن الوسائط القديمة ،رغم زحزحتها تبقى حاضرة داخل الوسائط الجديدة في شكل الأثر الأركيولوجي la trace archéologique.

وخطورة وسائل الإعلام،كما يعتقد ماك لوهان،لا تكمن في آثارها المباشرة والظاهرة بقدر ما تكمن في آثارها الخفية والعميقة التي تخلق وسطا جديدا وتشكل الأبنية الأنثروبولوجية العميقة لوعي الإنسان وخياله ومداركه في هذا العالم الذي أمسى عبارة عن «قرية كونية la village planétaire»،بحيث انكشمت أطرافه وتقلصت قاراته،والتحمت مكوناته مع بعضها البعض في تفاعل رهيب. في هذا العالم ونتيجة لما سبق، صاغت وسائل الإعلام وشكلت في بوتقتها نموذج الإنسان الجديد، وجدانا وفكرا ووعيا.

ومن يمتلك هذه الإمكانيات الجهنمية، يصبح قادرا على استنساخ الإنسان بطريقة أخطر من الاستنساخ البيولوجي الذي يهدد العالم.

يقول أحد مفكري وسائل الإعلام:«سوف آخذ أبصاركم وأذانكم وأعصابكم

وعقولكم كمرتكزات وأحول العالم حسب الوتيرة والطريقة التي تعجبني»

وهناك فكرة أخرى حلها هذا المفكر وتتمثل في كون وسائل الإعلام ليست

مفصولة عن الإنسان ومستقلة عنه،بل هي إمتدادات طبيعية له،يعيش بفضلها نوعا من التضخم والتمدد عبر المكان والزمان والخيال، فالدولاب امتداد للقدم،والكتابة امتداد

للنظر، والثياب امتداد للجسد، وخطوط الكهرباء امتداد للجهاز العصبي، وغزو الفضاء امتداد لغزو الأرض (خاصة لدى الأمريكيين).

صنف ماك لوهان وسائل الإعلام وكشف خباياها وأسرارها وتأثيراتها المختلفة على الإنسان. هذا الوعي بأهميتها العظمى جعله يقسمها إلى قسمين: وسائل إعلام حارة ووسائل إعلام باردة.

وسائل الإعلام الحارة هي التي تزود الإنسان بعناصر إخبارية كثيرة، وتمده بعدد من القوانين والشفرات المساعدة في فك الرموز والدلالات وفهم الرسالة بيسر وسهولة، بغض النظر عن فقر الرسالة وأهميتها. وتعد الصور السينمائية والتلفزيونية حارة، لأنها بليغة ومعبرة ودالة بذاتها، بحيث تعفي المتلقى من التخريجات والتأويلات التي قد يضيع معها.

والوسائل الحارة لا تقتضي مشاركة المتلقى، فهو يتلقاها براحة وسكينة وكسل، وهي تولد نوعا من السلبية لدى المتلقى (السلبية في الفكر)، ولكنها قد تثير من جهة أخرى رد فعل عنيف يتناسب مع قوة تأثير الصورة في المتلقى، خاصة وأن العقل لا يتدخل في إعادة إنتاج الرسالة والتحكم في مضامينها.

أما وسائل الإعلام الباردة فهي تزود المتلقى بعناصر إخبارية قليلة ومحدودة، وبشفرات ترميزية غامضة، مما يضطره إلى المشاركة بقوة في عملية إنتاج الدلالة والمعنى، استكمالا لملء الفراغات والفجوات والخطابات الغائبة.

ويبدو أن وسائل الإعلام البصرية، هي بصفة عامة وسائل حارة، لأن الصورة تمد المتلقي بكل ما يحتاجه من معلومات ومعطيات. السينما، التلفزيون، الصورة الإشهارية، تعد وسائل حارة. إن الباث عندما يقدم صورة إشهارية، يوفر على القارئ جهدا كبيرا في فك الترميز، لأن الهدف هو توصيل الرسالة والاقناع ثم التأثير على المتلقي لاقتناء السلع والبضائع.

وقد ذهبت بعض وسائل الإعلام إلى حد الاستعانة بنظرية بافلوف المتصلة بالمنعكس الشرطي لتوجيه الرأي العالم وصياغة سلوكيات ومواقف الأفراد.

إن العلم بصرامته العقلية هو وسيلة حارة، بينما الفنون باردة. ويعد ماك لوهان الثقافة الغربية ثقافة حارة، بخلاف الثقافات غير الأوروبية التي عدت ثقافات باردة. أما في مجال الرقص، فإن بعض الرقصات عدت حارة (مثل الفالص) لأنها تقوم على قواعد

ثابتة ومغلقة ولأنها لا تقبل الارتجال والعفوية والحرية، بينما عدت رقصة تويست باردة لأنها تتوفر على قدر كبير من الحرية، مما يقتضي الارتجال والعفوية والمبادرة الشخصية.

إن الثقافة الغربية التي تمجد العقل وإرادة القوة (نيتشه) هي وسيلة حارة، أما الفنون، فهي تتجه إلى أن تصير باردة (مثل الرمزية السريالية..الخ)، كما أن بعض الإبداعات الروائية المعاصرة، نظرا لما تحمله من ثورة على الأشكال الفنية السائدة، ومن روح إبداعية، أدمجت القارئ في العملية الإبداعية ليصبح بدوره مبدعا للنص الأدبي ومنتجا للمعاني والدلالات، وهذا التوجيه الجديد يتم بطبيعة الحال وفق الوسائل الباردة. ومع التحول الحضاري الذي تعيشه إنسانية اليوم، ومع اختلاط الثقافات وامتزاجها مع بعضها البعض، أخذت الوسائل الباردة تهيمن على كل فضاءات الحياة الحديثة.

إن ماك لوهان قد تمكن بفضل وعيه وذكائه الحاد من طرح ربما أهم إشكالية في القرن العشرين، لأن التجارب أثبتت أن من يتحكم في وسائل الإعلام يتحكم في العالم. وقد بينت التطورات والأحداث والإنجازات الإعلامية الكبرى التي تمت بعد موت هذا المفكر، أن هذا الأخير قد بشر بها وتنبأ بها. وقد زدنا، رغم بعد الزمن، بمنهجية محكمة وأدوات نقدية صارمة تمكننا من مواجهة «القبلة الإعلامية» وتعطيل مفعولها الذي يهدد المصير الإنساني. في مواجهة الخطر الإعلامي، يقف ماك لوهان، داعية الحرية والإبداع والوعي، مبشرا بنزعة إنسانية جديدة، منطلقها إرادة التحرر وروح المقاومة ووحدة المصير الإنساني. ومع بزوغ فجر العولمة تكتسي تنبؤات ماك لوهان دلالات جديدة، وتصبح أكثر من أي وقت مضى معبرة عن برومثيروس العهد الجديد.

المصادر والمراجع

1- المصادر

Mc.Luhan, Marshall :

-La Galaxie Gutenberg, Paris, Maison Mame, 1967.

-Pour comprendre les média, Paris, Maison Mame, 1968.

-Message et Massage, Paris , Pauvert, 1988.

-Guerre et paix dans le village planétaire, Paris , Laffont, 1970.

-Counterblast, Paris, Maison Mame, 1972.

-Du cliché à l'archétype, Paris, Maison Mame, 1973.

2-المراجع

- Barthes, Roland, Mythologies, Paris, Seuil, 1957.
- Breton, Philippe, L'Utopie de la communication, Paris, La Découverte, 1992.
- Eco, Umberto, L'Œuvre ouverte, Paris, Seuil, 1965.
- Escarpit, Robert, Théorie générale de l'information et de la communication, Paris, Hachette Université, 1976.
- Habermas, Jurgen, Théorie de l'agir communicationnel, Paris, Fayard, 1987.
- Hoggard, Richard, La Culture du pauvre, Paris, Minuit, 1970.
- Lazar, Judith, La Science de la communication, Paris, P.U.F. 1992.
- Vanoie, Francis, Expression. Communication, Paris, Armand Colin, 1973.